بسم الله الرحمن الرحيم

الجزء التاسع عشر

سورة الفرقان

من الآية ٢١ حتى نهايتها الآية ٧٧

وسورة الشعراء

وسورة النمل

من بدايتها حتى الآية ٥٥

obeikandl.com

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) ﴾

وقال الرافضين لقاءنا، المنكرين للبعث والحساب، وما خلق ذلك من إله يحكم، يأمر وينهى، يُشرع للحياة وما يفعلون وما لا يفعلون ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ﴾ فتجيبهم الآية ﴿ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ تجاوزوا الحد فى الظلم، فبأى حق يُملون الشروط على خالقهم ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ ﴾ فلن تكون تلك بشرة خير، بل بشرة عذاب الاستئصال للأمم الجاحدة فى الدنيا، أو بشرة عذاب حساب الآخرة، فالملائكة لا تظهر للإنسان إلا عند الموت أو الحشر وسيتعوذون بالله من الملائكة الذين كانوا يطلبونهم من قبل، ويتضرعون ﴿ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ كلمة استعاذة تقولها العرب لمن تخاف شره فى الشهر الحرام، أو فى الحرم، فكأنهم يستعيذون بالله قائلين أبعدهم عنا ياألله، أو تقول الملائكة لهم: إنكم مبعدون عن الجنة، أو يقول كلّ من الفريقين مقالته ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا ﴾ وجئنا إلى ما عملوه فى الدنيا ليس لوجه الله ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ كالغبار المنثور فى الجو فى انعدام وزنه وفائدته.

* * *

﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً (٢٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾

أما أصحاب الجنة يومئذ فما خير مستقرهم وأحسنه ﴿ مَقِيلاً ﴾ كان وقت الظهيرة هو أشد الأوقات صعوبة على أهل مكة والجزيرة العربية، وليس فى الجنة شمسًا تجلب الحر، وإنما هو تصوير لحسن حال أصحاب الجنة فى أشد أوقات حرهم فى الدنيا. وفى يوم الحساب؛ تتشقق السماء بالسحاب، وتنزل الملائكة، والملك يومئذ كله للرحمن، وانكشفت الأحجبة عن

الأعين، فانكشفت معها متع الدنيا الفانية، وزال كل جاه وسلطان ومال، ويتحسر الظالم فى يومه العسير على ما فعل فى الدنيا، ويقول حين لا ينفع القول ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً (٢٨) ﴾ وا ندماه على سوء اختيارى، وبدلاً من اتباع الرسول فقد اتخذت ﴿ فُلاناً ﴾ صديقًا مقربًا، فقد ﴿ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ ﴾ ذكر الله الذى خلقنى، وذكر العمل الذى خلقنى لأقوم به، ونعم العمل: خلافة الله على الأرض ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ وما أكثر خذلان الشيطان للإنسان.

* * *

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً (٣٣) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ﴾

رفضت قريش وجحدت رسالة محمد (ﷺ)، وهجرت القرآن وفضلت طريقة حياتها، فقال (ﷺ) آسفًا متألمًا ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً ﴾ فأجابه ربه ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ يناصبون أنبياءهم العداء ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيراً ﴾ حسبك الله فهو هاديك، وهو كافيك وناصرك ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ قالوا لماذا لم ينزل القرآن مرة واحدة؟ فتجيبهم الآية: لنثبت به قلبك، أنت ومن معك، فالقرآن يبنى عقيدة ويرسخها فى القلوب، ويزيل ركام المعتقدات التى تكدست فى التقاليد عن الله، و بعد ترسيخ الألوهية والربوبية، يرسخ مساواة البشر، ثم يضع لهم الشريعة التى يفلحون فى الدنيا والآخرة إذا اتبعوها، وما كان يمكن لهذا التغيير الهائل أن ينزل مرة واحدة، ولا أن يتم فى يوم وليلة ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ وتابعنا تنزيل آياته عليك وعلى الناس بدون انقطاع، حتى أتممنا ذكرنا بإتمام تنزيله، وكلما آتوك بحجة ألهمناك الحق والتفسير الأحسن ﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٣٤) ﴾ يحشر الله الكفار إلى جهنم على وجوههم أذلاء أخزياء، وهذه العاقبة هى الأسوأ والأضل طريقًا.

* * *

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيراً (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً (٣٨) وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) ﴾

وتحكى هذه الآيات ما أصاب الأمم الأولى لتنذر الناس، فتروى قصة موسى (ﷺ) الذى أنزل الله عليه التوراة وشد أزره بأخيه هارون (ﷺ)، وأمرهما بالذهاب إلى فرعون وقومه، فكذبوا بآيات الله، فأغرقهم الله فى البحر. وقبلهم، أرسل الله نوحًا (ﷺ) إلى قومه، فكذبوه، فكانوا بتكذيبه كأنما كذبوا إرسال الله للرسل، فأغرقهم الله وجعلهم آية لمن يعتبر، وأعد لهم وللظالمين أمثالهم عذابًا أليمًا، مثل عاد وثمود وأصحاب ﴿ الرَّسِّ ﴾ البئر، وبينهم أقوام آخرون، ضرب الله لهم الأمثال بإرسال الرسل، فكفروا فأهلكهم كلهم. وتمر قريش والعرب على قرية لوط (ﷺ) فى طريقهم للشام، وكانوا يرون آثار دمارها، أفلا يعتبرون منها؟ بل هم رضوا بالحياة الدنيا، ولا يريدون بعثًا ولا آخرة.

***

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٤) ﴾

إذا رآك الكفار يا محمد ﴿ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً ﴾ فيقولون ساخرين ﴿ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴾ هل يعقل أن يبعث الله لنا محمدًا لنتبعه ونسير خلفه؟ ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ لقد أوشك أن يصرفنا عن آلهتنا التى نعبدها ﴿ لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ ولكننا انتبهنا وثبتنا على آلهتنا ـ فيا بؤس صبرهم ويالسوء عاقبة تكبرهم ـ ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ ﴾ يوم الحساب ﴿ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ أرأيت يا محمد من أصبح عبدًا لأهوائه، أفتعتبر نفسك مسئولاً عنه؟ أم تحسب أنهم يستخدمون ما منحتُهم من نعم السمع والعقل؟ ﴿ إِنْ هُمْ

﴿ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ قال الله ذلك لرسوله ليهون عليه حزنه من جحود قريش، ويشد من عزيمته إزاء عنادهم.

* * *

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا(٤٧) ﴾

فى بقعة محددة على الأرض، يتوقف اتجاه الظل ومقداره على وضع تلك البقعة بالنسبة للشمس، الذى يتغير بتغيير الوقت فى ساعات اليوم، منذ طلوع الشمس إلى مغربها، بسبب دوران الأرض حول محورها، وبتغير اليوم والشهر فى أيام السنة، بسبب دوران الأرض حول الشمس، ولا يسكن الظل إلا بتوقف الأرض عن الدوران، مما يؤدى إلى اختلال كل أنظمة الحياة على الأرض وتوقفها ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴾ فهو يزيد بها وينقص، ويتجه يمنة ويسرة ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ ثم انقصناه بالتدريج حتى يبلغ أدناه فى منتصف الظهيرة ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ جعل الله الليل ساترا لكم بظلامه كاللباس ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾ راحة للأبدان بعد العمل والحركة فى النهار ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴾ انبعاثا من النوم للعمل والكسب.

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٥٠) ﴾

وتتوالى النعم الربانية، فيسوق الله الرياح لتجمع السحب التى تبشرنا بالمطر ماءً طاهرًا فى نفسه ومطهرًا لغيره، فإذا ما ساقه إلى بلدة ميتا لا ماء فيها ولا نبات، أحياها فأنبتت الزرع الذى يأكله الناس والدواب، ويشربون ذلك الماء ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا ﴾ أى صرفنا ووزعنا السحاب والمطر بين الناس ليشكروا المنعم ويعبدوه، ولكن أكثر الناس أبوا واستكبروا وكفروا بالنعم والمنعم.

* * *

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) ﴾ لو شئنا يا محمد لأرسلنا فى كل قرية من القرى نذيرًا، ولكننا أردنا نبيًا واحدًا خاتمًا لسلسلة الأنبياء الكرام، ليبلغ الرسالة الخاتمة، بآخر كتب الله للعالمين، كما جاء فى سورة الأنبياء ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) ﴾، وفى سورة الفرقان ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [١]، وفى سورة سبأ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [٢٨]ـ وأنت يا محمد أهل لهذا التكليف ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ ﴾ واجتهد وداوم على الجهاد فى إبلاغ دعوة الحق ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) ﴾

قال زغلول النجار: [كل من الماء العذب والماء المالح له من صفاته الطبيعية والكيميائية ما يمكنه من البقاء منفصلا انفصالا كاملا عن الآخر، على الرغم من التقاء حدودهما عند مصب النهر، وذلك بتكوين برزخ من الرسوبيات أمام فوهة النهر ومن حوله، ويؤدى ذلك إلى تفرع الماء العذب إلى فرعين أو فروع من حوله، يتدفق منهما أو منها الماء العذب مكونا طبقة رقيقة طافية فوق الماء الملح، وتختلط به عند حوافها مكونة حزاما من الماء القليل الملوحة مقصورة على تلك البيئة، ومحجورة فيها، أى لا تستطيع الخروج منها وإلا هلكت، كما أن كل مجموعة من أنواع الحياة فى البيئتين الأخريين لا تستطيع دخول الماء القليل الملوحة وإلا هلكت، فيما عدا أعداد قليلة جدا منها تستطيع العبور فيها دون بقاء طويل. ومن هنا كان هذا الماء القليل الملوحة حجرا على الحياة الخاصة به، ومحجورا على الحياة فى البيئتين الأخريين من حوله] ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا ﴾ والله هو الذى يخلق من ماء التناسل بشرًا، وتنصهر العائلات وتنتسب لبعضها البعض بذلك الماء ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ إذ يجعل من ذلك الماء المهين رباطًا أسريًا متينًا ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ ومن جحود ابن آدم أن يعبد ـ بعد كل هذه النعم التى لا تعد ولا تحصى ـ آلهة لا تضر ولا تنفع

﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ معينًا للشيطان بالشرك، وقيل مَهينًا لا قيمة له، وما أرسلناك يا محمد إلا مبشرًا للمؤمنين بالجنة ونذيرًا للكفار بالنار، وقل يا محمد للمشركين ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ لا أطلب منكم أجرًا ﴿ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ وهذا استثناء منقطع.

* * *

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾

توكل يا محمد على الله الحى الذى لا يموت فى إتمام رسالتك، وسبح بحمده ليعينك على أداء أمانتك، وهو يعلم ما ستلاقيه فهو ﴿ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴾ وهو الذى خلق الأكوان كلها فى ستة أيام وما مسه من تعب ولا نصب ثم ﴿ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ سبق الكلام عن ذلك فى شرح الآية ٥٤ من سورة الأعراف، والآية ٣ من سورة يونس، والآية ٢ من سورة الرعد، والآية ٥ من سورة طه. وخلاصته، أن المقصود طلاقة القدرة والمشيئة الإلهية فى كل الأكوان، والله خالق الزمان والمكان، فلا يحتويه أىٌّ منهما، وكيفية الاستواء من أمور الغيب ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ وهل هناك خبير أفضل من القرآن والوحى الذى ينزل على خاتم النبيين؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ اعبدوا الرحمن وحده لا شريك له واسجدوا له ﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ ﴾ من هو الرحمن؟! وسخروا من الاسم وقالوا هل تتصور أننا سنسجد لما أمرتنا به ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ وإزداد تباعدهم عن الإيمان ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ تبارك الله الذى جعل فى السماء منازل للكواكب السيارة ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا ﴾ شمسًا ﴿ وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴾ مضيئا بالليل ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾ يتعاقبان. كل هذه الآيات ﴿ لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ﴾ الله، وأمر هذا الكون، ولماذا خلقه الله؟ وبماذا كلفه؟ وما هى نهايته؟ ﴿ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أو أراد بقوله وعمله أن يشكر الله على ما حباه به.

* * *

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾

وتختتم سورة الفرقان بأوصاف جميلة لعباد الرحمن، وهم المؤمنون الذين شرفهم الله بعبوديتهم له ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ يمشون هينين لينين بسكينة وتواضع مخبتين لربهم ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ ﴾ إذا تطاول عليهم السفهاء أجابوهم قائلين ﴿ سَلامًا ﴾ سلام عليكم، لا نريد شقاقًا ولا عراكًا ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾ والذين يتضرعون لله قائلين ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ﴾ التى لم يروها، ولكن آمنوا بالغيب من آيات ربهم، وأنهم مبعوثون ليوم الحساب، فريق فى الجنة وفريق فى جهنم، ويطلبون النجاة منها ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ هلاكًا وخسرانًا ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾ فما أسوأها كمستقر ومقام ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾ من سماتهم التوسط والاعتدال، فلا هم يسرفون فى الإنفاق على دنيا فانية، ولا هم يبخلوا عن الانفاق فى وجوهه الحقة.

***

﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾

يوحدون الله، ولا يقتلون النفس التى حرم الله قتلها، إلا أن يكون قصاصًا أو رد اعتداء أو ما إلى ذلك، ولايزنون. عن عبد الله ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» قلت: ثم أى؟ قال «أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك» قلت: ثم أى؟ قال: «أن تزانى حليلة جارك» متفق عليه ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ حين ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ ويُستثنى من ذلك العقاب الخالد ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا

رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ بل إن من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا، فإن الله يبدل سيئاتهم حسنات ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) ﴾.

* * *

﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) ﴾

ومن صفات عباد الرحمن أنهم لا يشهدون الزور، وجاء فى الحديث أن رسول الله (ﷺ) قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وكان متكئًا، فجلس فقال: «ألا وقول الزور وشهادة الزور» فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. رواه البخارى ومسلم. ونستعير هنا للجميع: يهود ومسيحيين ومسلمين: قول المسيح (ﷺ): من كان له أذنان فليسمع، ومن كان له عينان فليبصر! . فقد قرن رسول الله (ﷺ) قول الزور بالشرك، وكرر أنه أكبر الكبائر، وأخذ يكررها حتى قال صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ خوفًا وهلعًا: ياليته سكت! واليوم نجد شياطين الإنس ـ من كل ملة ودين ـ يتباهون بالتزوير، ويزعمون أنهم مؤمنون ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ اللغو هو كل ما ينبغى أن يُلغى ويُطرح من قول أو فعل، وهو ما يترفع عنه كرماء وأعزاء كل مكان وزمان، وقيل: كل ما ليس فى سبيل الله، ولا يُقرب لله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أولئك يتدبرون آيات الله، ويبذلون قصارى جهدهم فى فهمها واستيعابها، والاعتبار بما فيها، ثم العمل بها، ومن دعاء عباد الرحمن ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

* * *

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾

الذين يتصفون بهذه الصفات جزاؤهم غرف الجنة ﴿ بِمَا صَبَرُوا ﴾ فى الدنيا، تستقبلهم ملائكة الرحمن بالتحية والسلام، خالدين فى الجنة، فما أحسنها مستقرًا ومقامًا ﴿ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ قال سيد قطب: [وهو ختام يناسب موضوع السورة كلها؛ ومساقها للتسرية عن رسول الله (ﷺ) وتعزيته عما يلاقى من عناد

قومه وجحودهم، وتطاولهم عليه، وهم يعرفون مقامه؛ ولكنهم فى سبيل الإبقاء على باطلهم يعاندون ويصرون. . فما قومه؟ وما هذه البشرية كلها، لولا القلة المؤمنة التى تدعو الله. وتتضرع إليه. كما يدعو عباد الرحمن ويتضرعون؟

ما هم والأرض التى تضم البشر جميعًا إلا ذرة صغيرة فى فضاء الكون الهائل. والبشرية كلها إن هى إلا نوع من أنواع الأحياء الكثيرة على وجه هذه الأرض. والأمة واحدة من أمم هذه الأرض. والجيل الواحد من أمة إن هو إلا صفحة من كتاب ضخم لا يعلم عدد صفحاته إلا الله؟

وإن الإنسان مع ذلك لينتفخ وينتفخ ويحسب نفسه شيئًا؛ ويتطاول ويتطاول حتى ليتطاول على خالقه سبحانه! وهو هين، ضعيف ضعيف، قاصر قاصر. إلا أن يتصل بالله فيستمد منه القوة والرشاد، وعندئذ فقط يكون شيئًا فى ميزان الله؛ وقد يرجح ملائكة الرحمن فى هذا الميزان. فضلاً من الله الذى كرم هذا الإنسان وأسجد له الملائكة، ليعرفه ويتصل به ويتعبد له، فيحفظ بذلك خصائصه التى سجدت له معها الملائكة؛ وإلا فهو لقى ضائع، لو وضع نوعه كله فى الميزان ما رجحت به كفة الميزان!

«قل: ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم». . وفى التعبير سند للرسول (ﷺ) وإعزاز: «قل: ما يعبأ بكم ربى». فأنا فى جواره وحماه. هو ربى وأنا عبده. فما أنتم بغير الإيمان به، والانضمام إلى عباده؟ إنكم حصب جهنم «فقد كذبتم فسوف يكون لزامًا»].

ما يكترث ربكم بكم إلا إذا عبدتموه، والدعاء هو مخ العبادة. فلا تلهكم أرزاقكم ومتع الدنيا الفانية عن عبادة خالقكم ورازقكم، فإذا كذبتم وتخليتم عن أمانة التكليف بالخلافة، وما أثقلها أمانة وأشرفها خلافة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ فسيلزمكم عذابًا دائمًا.

***

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ طسٓمٓ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩) ﴾

﴿ طسٓمٓ (١) ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ هذه الآيات التى تتنزل عليك هى آيات القرآن الواضح ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ لعلك مُهلك نفسك حسرة وحزنا على قومك لأنهم لا يؤمنون ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ ولو شاء ربك لأنزل عليهم من السماء آية تلوى أعناقهم وتجبرهم على الإيمان، ولكن ليست تلك مشيئته. وكلما أنزلنا آية من آيات القرآن، أو وحيًا بسُنة استمروا فى إعراضهم، فقد حسموا أمرهم على رفض رسالتك وتكذيب ما جئتهم به ﴿ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ يوم الحساب. أو لم يروا أن الله قد أنبت للإنسان ﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ نافع، إن فى ذلك لآية لهم على قدرة الله، وعلى قيامه على حياة

(*) إلا الآية: ١٩٧، ومن الآية ٢٢٤ إلى آخر السورة.

البشر ولكن أكثرهم لايؤمنون ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ واهب العزة ومانعها ﴿ الرَّحِيمُ ﴾ يمهل ويرحم لعلهم ينتبهون قبل فوات الأوان .

* * *

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾

تتلو هذه الآيات على محمد (ﷺ) قصص الأنبياء وجهادهم مع أقوامهم، ليعتبر هو والمسلمون منها، وتشتد عزائمهم، وتبدأ بقصة موسى (ﷺ) إذ ناداه ربه ﴿ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ لأنفسهم بالكفر ولبنى إسرائيل بالسخرة والاستعباد وادعهم لتقوى الله ﴿ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ فأجاب موسى ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي ﴾ وكيف أقدر على تلك المهمة وحدى، وأخاف ألا أجاريهم فى الجدال ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾ أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى، كما إنى أخاف أن يقتلونى مقابل المصرى الذى قتلته من قبل ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴾ يفيد هذا الرد أن الله استجاب لطلب موسى (ﷺ) فى الاستعانة بأخيه، وأنه سبحانه وتعالى طمأنه بأنهم لن يستطيعوا قتله، فحى على الفلاح يا موسى أنت وهارون، إذهبا إلى الطاغية، إنى معكما، فقولا له إنا رسولا رب العالمين، و﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) ﴾ .

* * *

﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾

قال فرعون لموسى (ﷺ) مؤنبًا ومُمنّا ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ وأعتبرناك ابنًا لنا وعشت معنا سنين طوالاً، ثم ﴿ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ حين قتلت أحد رعايانا انتصاراً لرجل من قومك، فاعترف موسى (ﷺ) قائلاً ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ثم فررت خوفًا منكم، ثم وهبنى ربى حكمة من لدنه، وجعلنى من المرسلين ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ

﴿عَبَّدتَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ (٢٢)﴾ لا تمتن علىّ بنعمة التربية فى قصرك وقد استعبدت بنى إسرائيل وذبحت أبناءهم واستحييت نساءهم؛ فلا فضل لك بل إنك جنيت على قومى.

* * *

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨)﴾

﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ سأل الطاغية القديم، متحديًا فأجابه موسى (ﷺ) ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ إن كنتم تبحثون عن اليقين. التفت فرعون لمن حوله قائلا ألا تسمعون! قال موسى (ﷺ) بقوة الحق ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ جُنَّ فرعون فقال لمن حوله ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ واستمر موسى (ﷺ) رابط الجأش، يتكلم بقوة الحق ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

* * *

﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِى لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧)﴾

وهدد فرعون موسى (ﷺ) بالسجن إذا لم يتمثل لأوامره وينتهى عن نواهيه، وتحين موسى (ﷺ) الفرصة ليظهر بعض الآيات لعل فرعون يرتدع ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ (٣٠)﴾ أجابه فرعون متكبرًا و متحديًا ﴿فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان يسعى، ثم أخرج يده فإذا هى بيضاء للناظرين، وخشى فرعون أن يتأثر المشاهدون فقال ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ وسرعان ما لفق تهمة لموسى (ﷺ) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ أنه يريد أن يخرج المصريين من أرضهم، فهو عدوكم، وأنا أنما أحميكم منه ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ وهكذا دائما الطواغيت المستبدون، يقلبون الحقائق، فأجابته بطانته الانتهازية المنافقة التى لا تقل سوءًا ولا شرًا عنه ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أمهل موسى وأخاه حتى نبعث ﴿فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ فى المدن من يجمع لنا السحرة العليمين.

* * *

﴿ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (٤٨) ﴾

جمعت بطانة فرعون السحرة، وشغلوا الناس بدعوتهم للفرجة، واصطنعت البطانة أنها إنما تريد الحق، فإذا غلبت السحرة اتبعوهم، ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ وبالطبع جاء السحرة للفرعون طلبًا للأجر، فلا هم مؤمنين به، ولا هم مؤمنين بما سيفعلونه من أجله، وبالطبع أيضًا قبل منهم فرعون ذلك، ووعدهم بأجر، وبأنهم سينضمون إلى فرقة الانتهازيين المنافقين من بطانته. قال لهم موسى (ﷺ) بعزة الحق ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ فألقى السحرة بأكثر حيلهم مكرًا وخداعًا، وقالوا في عزة زائفة مصطنعة ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ فتبعهم موسى (ﷺ) بإلقاء عصاه فاقتلع الحق الباطل، وعلت عزة الإيمان على انحطاط النفاق والكفر، وإذا بالسحرة يسمون عن سحرهم فيؤمنوا بموسى (ﷺ)، ويخروا ساجدين لله رب العالمين، رب موسى وهارون رب المؤمنين إلى يوم الدين.

* * *

﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾

وإذا بفرعون الذي خلا من أي إيمان، وبرأ من أي علم، واحترف كل تزوير وكذب وشرّ، يلفق في التو واللحظة تهمته للسحرة: إنكم اتباع الساحر موسى، وستعلمون ما أنا فاعل بكم!.

وكأنه بعقله المحدود وفطرته الفاسدة ونفسه الخاوية تصور أن على من يؤمن أن يأخذ إذنه أولاً!

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فإذا بالسحرة الذين آمنوا يقولون ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ لا ضرر مما ستفعله معنا ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾.

* * *

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾

اختصرت السورة جزءًا من قصة موسى (ﷺ) مع فرعون، التى ظهرت فى سور أخرى، وانتقلت مباشرة إلى أمر الله موسى (ﷺ) بالسير مع من آمن به من عباد الله، وهم ليسوا كل بنى إسرائيل، ولا كلهم من بنى إسرائيل(١)، وحذره الله بأن فرعون وجنوده سيتبعونهم، بحجة أنهم ﴿ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴾ فخرج فرعون وجنوده من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ إلى حين كما بينت آيات أخرى.

* * *

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨) ﴾

فاتبعوهم وقت شروق الشمس، أو فى اتجاه الشرق، أو الاثنين معًا، فلما أصبحوا فى مجال الرؤية لكل فريق، قال من مع موسى (ﷺ) ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ فقال لهم ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ وعندئذ تدخلت العناية الإلهية فأوحت إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فإذا به ينفلق نصفين ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ كل منهما كالجبل العظيم، وكشف طريقًا عبر عليه موسى (ﷺ) ومن معه لينجوا جميعًا ﴿ وَأَزْلَفْنَا ﴾ قربنا ﴿ ثَمَّ ﴾ حيث انفلق البحر ﴿ الْآخَرِينَ ﴾ فرعون وجنوده، فأسرعوا على أثرهم ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) ﴾ فما كانوا يسرعون إلا لحتفهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وما كان أكثر قوم موسى (ﷺ) وقوم فرعون بمؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

* * *

(١) آمن بموسى (ﷺ) السحرة، وامرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، وإعطاء المصريين حليهم لبنى إسرائيل دليل على تعاطفهم معهم. وجاء فى العهد القديم أن يوسف (ﷺ) تزوج أسنات بنت فوطى فارع كاهن أون، وأنجبت منسَّى وإفرايم، وإفرايم هو الذى اعتبره يعقوب (ﷺ) بكره، ومن أحفاد يوسف (ﷺ) جاء يشوع خليفة موسى، وربما يكون هو فتاه الذى ذكره القرآن.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾

واتل عليهم يا محمد آيات القرآن عن إبراهيم (ﷺ) مع أبيه وقومه؛ إذ سألهم عما يعبدون؟ فأجابوا ﴿ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾ فسألهم مستنكرًا ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ فلم يجدوا جوابا إلا أن يقولون ﴿ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ قال إبراهيم (ﷺ) إن الأصنام التى تعبدونها أنتم وآباؤكم وأجدادكم أكفر بها وأُعاديها، ولا أعبد إلا رب العالمين.

* * *

﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧) يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾

تعيد كلمات خليل الله، وأبو الأنبياء، إبراهيم (ﷺ) للبشرية صوابها، فالله الخالق لم يترك الكون بعد خلقه، بل هو رب العالمين، هو الذى يطعم ويسقى، هو الذى يشفى، هو المحى والمميت، فكيف تخرجه البشرية من حياتها؟ كيف تتجرأ بعض النطف الخصيمة فتقول إنها تستطيع تدبير حياتها بصورة أفضل فى غياب الله؟ أو تريد أن تحبس الله فى صدور العباد وفى أماكن العبادة!

تستمر كلمات خليل الله، وكأنها جماع الحكمة وسلسبيل الأمة، لا تحتاج شرح ولا تعليق، فهى من قلب خليل الرحمن، تدعو الله، خالقه وربه، وتنير الطريق لأبناءه المؤمنين إلى يوم الدين:

﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) ﴾ آمين ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ آمين ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾ اجعل الأجيال اللاحقة تصدق قولى، واجعلنى من الصادقين يوم الحساب ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ آمين ﴿ وَاغْفِرْ

﴿لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦)﴾ فقد كان أبوه يعبده الأصنام ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)﴾ آمين ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩)﴾.

* * *

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾

وبلسان عربى مبين، تذكر لنا الآيات الموجزة الحقيقة الهائلة، فى مشهد كاشف لأولى الألباب عن يوم الحساب، ولا يسعنا إلا أن نشرح بعض الكلمات بعد ما تعثر لساننا العربى: ﴿أُزْلِفَتِ﴾ اقتربت وحضرت - ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الذين ضلوا عن الحق واتبعوا أهوائهم وغواية الشيطان ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ كبوا على وجوههم المرة تلو المرة - ﴿تَاللَّهِ﴾ والله - ﴿كَرَّةً﴾ عودة، أى عودة للدنيا.

* * *

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١١٠) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١١٥)﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ فهم بتكذيبهم نوح (ﷺ) كذَّبوا إرسال الله للرسل. قال لهم نوح (ﷺ) ألا تتقون الله؟ إنى لكم رسول أمين ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لا أريد منكم أجراً على ذلك، فأجرى على رب العالمين، وعاد للمرة الثالثة يطالبهم بتقوى الله، فما كان جواب المتكبرين إلا أن قالوا: كيف نؤمن لك وقد ﴿اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الفقراء؟ فرد نوح قائلاً ﴿وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ليس لى إلا الظاهر وقد آمنوا بى وبرسالتى ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)﴾ وحسابهم ليس من شأنى ولكن الذى يحاسبهم على إيمانهم هو الله، فلن أطرد المؤمنين طمعًا فى رضاكم، فما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

* * *

﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)﴾

***

وإذا بالقوم الضالين يهددون رسول الله ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ سوف نسبك، بل ونرجمك بالحجارة، فسلم نوح (ﷺ) أمره لله ودعاه مستغيثًا ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ـ وفى استغاثة أخرى قال ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] ـ فأنجاه الله ومن معه فى الفلك المشحون بهم وبأزواج الحيوانات التى كانت تعيش حولهم، وأغرق المكذبين، إن فى ذلك لآية ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وما كان أكثر قوم نوح مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

***

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾

وها هم قوم عاد الذين كانوا يسكنون الأحقاف فى حضرموت وقد أنعم الله عليهم بالقوة والتمكين والثراء، فكفروا به فأرسل إليهم رسوله هود (ﷺ) فقال لهم: ألا تتقون الله؟ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ أتبنون بكل مكان مرتفع ﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ علمًا، أو علامة للعبث ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ وتصنعون ما تظنوه يكفل لكم الخلود فى الدنيا وتنسون لقاء الله ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ أى وإذا وقع فى أيديكم ضعيف أو فقير بطشتم به دون خشية من الله ولا رحمة! قال محمد الغزالى: [وعند التأمل نجد أن بناء البيوت العالية والسدود المائية والقصور ليس مما يؤاخذ المرء عليه، ولذلك قال العلماء إن الذى أخذ عليهم هو الترف الشديد، والإغراق فى حب الدنيا، والغفلة عن الله، واجتياح حقوق الآخرين] وطالبهم هود (ﷺ) بتقوى الله ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع النعم، ومن العلوم التى مكنت لكم فى الأرض ﴿أَمَدَّكُم

بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) ﴾ فاحمدوا واشكروا الله ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥) ﴾ فى الدنيا كما سبق للذين من قبلكم، وفى الآخرة عند لقاء الله.

* * *

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠) ﴾

وبتكبر وعناد الظالمين قالوا لرسولهم فى جحود: مهما قلت أولم تقل ﴿ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ﴾ ما نفعله هو ما فعله الأولون، أو أن هلاك الأولين ما هو إلا سنة الحياة، فكذبوا رسولهم فأهلكناهم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً ﴾ لمن يريد الاعتبار، وما كان أكثر قوم هود مؤمنين ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

* * *

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾

ثم ها هى ثمود القبيلة العربية التى كانت تسكن الحجر بين وادى القرى والشام، الذين انغمسوا فى الترف والنعيم، وذهلوا عن لقاء الله، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحًا (ﷺ) يدعوهم إلى تقوى الله قائلا إنه رسول أمين ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) ﴾ خافوا عصيان ربكم وأطيعونى فيما جئتكم به ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) ﴾ وهو بذلك قال مثلما قال نوح (ﷺ) وهود (ﷺ)، وأضاف: هل تظنون أنكم ستسمرون فى العيش فى نعم الله عليكم، من جنات وعيون، وبيوت محكمة متقنة البناء، وأنتم تتبعون المسرفين بدلاً من أن تحمدوا الله وتشكروه وتتقوه؟ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ الذين أترفوا على أنفسهم بظلمها ﴿ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾.

* * *

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٥٣) مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

وكعادة القوم الذين حاق بهم عذاب الاستئصال، كذبوا صالح (ﷺ)، وقالوا إنما غلب عليك السحر، وما أنت إلا بشر مثلنا، وتحدوه قائلين ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فجائهم بالناقة، وقال لهم تشربون يومًا وتشرب يومًا، وحذرهم من أن يمسوها بسوء ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فتحدوه مرة ثانية وعقروا الناقة ﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴾ قيل خوفًا من العذاب، وقيل بل عند حلول العذاب، لأن خوفهم من العذاب يعنى تصديقًا لرسالة صالح (ﷺ) ـ وقد جاء فى سورة هود ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥) ﴾ ـ فأخذهم العذاب ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾.

* * *

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾

ثم جاءت قصة قوم لوط (ﷺ) الذين كذَّبوا رسالته، فكأنهم بذلك كذَّبوا إرسال الله الرسل كلهم. دعاهم لوط (ﷺ) لتقوى الله، وأن يطيعوه ويتبعوا رسالته، وهو لا يسألهم أجرًا فأجره على الله، ثم نهاهم عن إتيانهم الذكور وتركهم نساءهم؛ لأنهم بذلك يعتدون على شرع الله والفطرة التى فطر الناس عليها.

* * *

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥) ﴾

فما كان ردهم إلا أن قالوا إن لم تكف عن نهينا عما نفعل فسنطردك من بيننا وننفيك عن قريتنا ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ (١٦٨)﴾ إنى لما تفعلون لمن المبغضين الكارهين، ثم اتجه إلى ربه مكلومًا ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩)﴾ فاستجاب له ربه، وأرسل رسله للقرية، وأمره أن يخرج وأهله لأنه سينزل بالقوم مطر الاستئصال، فنجوا جميعًا إلا زوجته فقد هلكت فى الباقين؛ لأنها كانت توافقهم على عملهم ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ (١٧٢)﴾ إن فى قصة لوط وقومه لآية وعبرة لكل من يغره الشيطان ليوقعه فى الشذوذ؛ وما كان أكثر قوم لوط (ﷺ) مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

***

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤)﴾

﴿الأَيْكَةِ﴾ تعنى الشجر الملتف، وقال الزمخشرى شجر الدوم، وشعيب (ﷺ) من مدين لذلك لم تقل الآية أخوهم شعيب كما جاء فى الآيات السابقة. كذّب أصحاب الأيكة رسولهم شعيبًا (ﷺ)، فكأنهم كذّبوا إرسال الله للرسل كلهم. وقال لهم رسولهم مثلما قال الرسل اتقوا الله ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم أراد أن يعالج عدم أمانتهم فى المعاملات فقال ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ ولا تأكلوا حقوق الناس، وزنوا بالعدل، ولا تبخسوا الناس أماناتهم فى البيع والشراء، وفى كل المعاملات، ولا تفسدوا فى الأرض بأكل حقوق الناس.

***

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٩١)﴾

وكما رد الأولون على رسلهم، ردوا بنفس الطريقة والأسلوب، فقد اتهموه بأنه غلبه السحر، وأنهم لن يؤمنوا له، لأنه بشر مثلهم، وتكبروا وجحدوا، بل وتفلسفوا فقالوا

﴿نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ثم تحدوه قائلين ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)﴾ و﴿كِسَفًا﴾ عذابًا، فأجابهم ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو صاحب الأمر فيكم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ فاستمروا فى تكذيبه فأخذهم عذاب يوم الظلة، وقال أكثر المفسرين إنها سحابة أمطرتهم نارًا، والعبرة فى أنه حاق بهم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ سواء كان بسحابة النار، أو الزلزلة التى جعلتهم يرتجفون، أو بالإثنين معًا، وما كان أكثرقومه مؤمنين ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

***

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)﴾

بعد أن أوجزت الآيات السابقة عبر رسل الله مع أقوامهم الذين كذبوهم، والذين ﴿مَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ انتقلت الآيات لتخاطب محمدًا (ﷺ) وقومه: إن القرآن تنزيل من رب العالمين، نزل به جبريل الروح الأمين على قلبك لتنضم إلى سلسلة رسل الله وتنذر قومك بلسان عربى مبين، وإن القرآن لمذكور فى كتب الأولين، أوليس معرفة علماء بنى إسرائيل بمحمد رسول من الله ـ مثل عبد الله بن سلام، وغيره فى زمن التنزيل ومن بعده[1] ـ بآية لهم؟ ولو أنزله الله على بعض العجم الذى لا يعرف اللغة العربية، لما آمنوا به ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠)﴾ كذلك جعلنا قبوله فى قلوب المجرمين أن لا يؤمنوا به إلا بعد أن يروا العذاب الأليم يوم الحساب، يوم يأتيهم العذاب فجأة وهم لا هون، فيصرخوا قائلين ألا يمكن أن تمهلونا وتعطونا فرصة نصلح فيها أوضاعنا من الكفر إلى الإيمان؟!.

***

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ

(١) من يوم التنزيل، وحتى اليوم، وإلى يوم الدين إن شاء الله تعالى، يدخل فى الإسلام علماء من المسيحيين واليهود، ومن عامتهم.

﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤)﴾ يا للضلال! أيستعجلون إنزال العذاب بهم عندما يتحدونك قائلين ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ ـ وعندما يقولون ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وقالوا غير ذلك كثير ـ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥)﴾ وحتى لو مددنا فى أعمارهم ونعمناهم فى الدنيا سنين طوالاً ﴿ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦)﴾ وكل آت قريب، فهل هذا الإمهال وطول العمر يغنى عنهم من عذابنا شيئا؟ ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨)﴾ إن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ولا يحكم بإنزال العذاب إلا من بعد أن يرسل الرسل الذين ينذرون أقوامهم، فتجحد الأقوام الرسل وتكذبهم، ثم تتحداهم بأن ينزلوا العذاب بهم ـ وكذلك جاء فى الذكر ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾، هؤلاء الرسل يذكروا أقوامهم بأيام الله، كما تذكر قومك ـ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠)﴾ وهل تنزل الشياطين بمثل هذا الذكر الحكيم؟ الذى يصحح عقائد الناس، ويرشدهم بالحجة والمنطق لما فيه هداهم وفوزهم فى الدنيا والآخرة، يهذب نفوسهم ويأمرهم بالعدل والإحسان وإيتاء القربى، وينهاهم عن الفحشاء والمنكر، ويهذب أخلاقهم، وعلى رأسها المساواة بين الناس، وتحريم التكبر الذى استحق به الشيطان لعنة الله، ويرشدهم إلى أنه لا يكتمل إيمان المرء حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وأن لايبيت شبعان وجاره جائع، ويعلمهم أن أكرمهم عند الله أتقاهم، وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، فليس هناك إلا إله واحد، والكل عبيده، فلا إله أقوى من إله، ولا شعب مختار وشعوب مستبعدة مستعبدة، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، ولا تنفع الأنساب يوم الحساب، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولكن فقط العمل الصالح، وينهى عن أن يتخذ بعض البشر بعضهم الآخر أرباباً يحللون ويحرمون، يدخلونهم الجنة أو يحرمونهم منها، بل كل البشر مكلفون بحمل أمانة الخلافة على الأرض، لإقامة الحق والعدل ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢)﴾ فليس ذلك لهم، ولا يستطيعونه، وهم معزولون عن سماع ما يوحى جبريل إليك.

***

﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ

﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

الخطاب لمحمد (ﷺ) والمقصود أمته ﴿فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ ثم تأمر الآية محمداً بأن يبدأ بإنذار عشيرته الأقربين من قريش ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ فى هذا التعبير الموجز المبين معان حميمة كثيرة: ترفق، وتواضع، وكن لينًا وسهل الجانب، رؤوفًا رحيمًا ودودًا، مشفقًا على من اتبعك من المؤمنين ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ فإن عصاك المكذبون، فأبلغهم أنك برئ مما يعملون ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الذى ترعاك عينه فى كل شأنك ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

* * *

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾

حذت قريش حذو فرعون وبطانته، عندما زعموا خوفهم من أن يبدل موسى (ﷺ) دينهم ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾ [غافر]! فزعمت قريش أن ما جاء به محمد إنما هو من الشيطان، فأجابهم رب العالمين ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ أنها تنزل على كل صاحب كذب كبير كما ونوعًا، وأثيم، يسمع لوسوسة شياطين الجن والإنس. أما الشعراء، فالعادة فى أتباعهم أن يكونوا ممن يغوون قصائد التفاخر بالأنساب أو قدحها، والتغزل فى النساء، ومدح السلاطين والأمراء، وذم معارضيهم وأعدائهم ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ يخوض الشعراء فى كل مجال وموضوع، وكثيراً ما يبالغون ـ حتى يجذبون الناس ـ فيما يقولون، وكثيراً ما يقولون ما لا يفعلون ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ وبعد أن فندت الآيات زعم المكذبين أن محمداً (ﷺ) شاعر، أنذرتهم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) ﴾

﴿ طس ﴾ ارجع لشرح الحروف المُقَطَّعة فى أول سورة البقرة ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ يهدى المؤمنين ويبشرهم بالفوز فى الدنيا والآخرة، أولئك المؤمنين هم الذين يقيمون الصلاة فى أوقاتها، يتمون أركانها، ويفعلون ما تأمرهم به وينتهون عما تنهاهم عنه، وفيها يذكرون الله، ويؤتون الزكاة، ويوقنون ببعثهم من الموت ليوم الحساب، والحياة الآخرة تبعًا لما فعلوا فى حياتهم الدنيا، وفقًا لموازين الله الحق، أما الذين ينكرون اليوم الآخر ولقاء الله فقد زينا لهم أعمالهم ﴿ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ يعمون عن الرشد فيضطربون حيارى، ويوم القيامة ينتظرهم سوء المصير، وهذا هو الخسران المبين. وإنك يا محمد لتتلقى آيات القرآن المنزلة من لدن رب العالمين الحكيم العليم.

* * *

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) ﴾

ثم تبدأ الآيات فى عرض مشاهد من عبر الرسل وأقوالهم، فها هو موسى (عليه السلام) يقول لأهله إنى رأيت نارًا، سأذهب إليها لعلى أعرف ممن أشعلها شيئًا، أو آتى لكم بشعلة منها نتدفأ بها، فلما بلغها سمع نداءا ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ كانت نارًا مصدرها الملأ الأعلى، نارًا أوقدها جنود الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ للهداية الكبرى، واستمر النداء: قد فاضت البركة العلوية على من فى النار ومن حولها، ومنهم موسى، فسبحان الله رب العالمين، واستمر النداء ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩)﴾ وهكذا يرتفع موسى من هارب من فرعون، لا جئ عند أهل مدين، يبحث عند النار عن خبر، أو يطلب من النار شعلة يستدفئ بها وعائلته، يرتفع ويسمو فيصبح فى التو واللحظة كليم الله ورسوله. ولكن لم يأت ذلك من فراغ! لقد تخلى موسى عن وضعه كابن لفرعون رفضًا لظلمه وجهادًا فى سبيل العدل، ثم تعرض لفتن ربانية كشفت عن معدنه وصقلته ـ ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، وذلك ليصنعه الله ويؤهله لكلّ ذلك، كما قال له وعنه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

***

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (١٠) إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)﴾.

ثم أمره ربه ﴿أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها فإذا هى حية تتحرك، فخاف موسى (عليه السلام) وابتعد ولم يعد، فقال له ربه مطمئنا ﴿يَا مُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ ثم ذكره بقتله المصرى ﴿إِلاَّ مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ فقد كنت من الظالمين عندما قتلته، وحقيق على الظالم أن يخاف، إلا إن تاب وأناب وأحسن العمل، فالله غفور رحيم، ثم يُرى الله بقية آياته لرسوله موسى: أدخل يدك فى جيبك ثم أخرجها ثانيًا، فإذا هى بيضاء ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ قال أكثر المفسرين بدون آفة كالبرص أو غيره، وما يمكن الجزم به أنها تخرج بيضاء مختلفة عما كانت عليه ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ فى جملة تسع آيات وهى العصا، وإخراج اليد بيضاء من غير سوء، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والطمسة والجدب، والنقصان فى مزارعهم، وقيل غير ذلك، وارجع لشرح الاية ١٠١ من سورة الإسراء. هذه الآيات رآها

فرعون وقومه عيانًا بيانًا، ولكنهم جحدوها قائلين ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظلمًا وطلبًا للعلو فى الأرض على الحق وعلى عباد الله، فانظر يا محمد ومن يسمع لك إلى يوم الدين، كيف كانت خاتمة المفسدين، فقد أطبق الله عليهم البحر، فهلكوا أجمعون.

***

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦) وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾

وبعد أن قدم الله فرعون كنموذج للطغيان والكفر رغم النعم التى أنعمها الله عليه، تحكى الآيات التالية نموذجًا مختلفًا؛ فقد أنعم الله على داود وسليمان (صلى الله عليهما وسلم) فقالا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وورث سليمان داود، وراح يعدد نعم الله عليه أمام الناس فقال ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ عُلمنا كيف يتواصل الطير مع بعضه البعض، وكيف يفكر وماذا يريد ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ وأتانا الله من خير كل شىء للبشر نصيبا ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ فحمد الله وشكره ـ ولم يقل مثلما قال هامان ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ ـ وجمع سليمان جنوده ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يصطفون بين يديه وتحت أمره يعملون، وعندما اجتازوا وادى النمل سمع سليمان (ﷺ) نملة تصيح ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فتبسم من قولها واتجه إلى الله بالشكر ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ ألهمنى الدعاء والحمد والشكر على كل هذه النعم التى تفضلت بها ﴿عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ وألهمنى أن أعمل من الصالحات ما ترضى به علىّ ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فما هى النعمة فى قصة النمل التى جعلت سليمان يأتى بمثل هذا الدعاء الجامع الوجيز ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ هل هو مجرد سماع تحذير النملة لبقية النمل؟ أم ذلك العلم والإيمان الذى حباه به الله وجعله يسمع لأصوات أقل الدواب حجمًا وشأنًا، فيستمع ويستجيب، فيمتنع هو وجنوده عن أن يؤذوا

النمل؟ فيا طغاة الأرض وجبابرتها من قساة القلوب وغلاظ النفوس وجهلاء متكبرين: من كان له أذنان فليسمع، ومن كان له عينان فليبصر!

***

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾

وبينما كان سليمان (عليه السلام) يتفقد جنوده من الطير، لاحظ اختفاء الهدهد فقال متساءلاً ﴿مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ بدون إذن ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢١)﴾ ولم يطل غياب الهدهد، فجاء قائلاً ـ بلا خوف ولا نفاق ـ: أحطت بعلم لا تعلمه يا سليمان الحكيم! ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ لقد شاهدت في قوم سبأ امرأة تحكمهم ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من أسباب الدنيا ومتعها، ولها عرش عظيم، ولكنها وقومها يعبدون الشمس من دون الله، وقد زين الشيطان لهم أعمالهم فصدهم وأضلهم عن الطريق المستقيم، ثم تعجب الهدهد من هذا الضلال وقال مستنكراً ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ الذي يخرج المخبوء والمستور في السماء والأرض، ويعلم ظاهرنا وباطننا ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾ فسبحان الله على قصة هذا الهدهد! ألا يستطيع بعضنا أن يسمو مثله؟!.

***

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾

قال سليمان للهدهد ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ فكتب خطابا وقال للهدهد ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي طرْ بعيداً وتابع ما الذي ستفعله هي

ورجالها، وعندما فتحت بلقيس الخطاب وقرأته نادت على بطانتها وقالت ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ فقد انشرح صدرها لما وجدت فى الكتاب ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ثم طلبت مشورتهم ﴿ أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ﴾ فكر الملأ قليلاً ثم قالوا ﴿ نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ ﴾ لكنهم تركوا القرار لها ﴿ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

* * *

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥) فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾

ترددت الملكة، فقد وجدت كتاب سليمان (ﷺ) كريمًا، ولكنها خافت إن تبعته أن تفقد عرشها، ومن ناحية أخرى خافت من أن رفضها اتباعه قد يجعله يأتى بجيوشه، وهى تعلم أن الملوك ﴿ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ فحاولت اجتناب كل ما تخشاه بإرسال هدية تجعلها تأمن تلك المخاطر. ثم ينتقل السياق القرآنى إلى وصول مبعوث الملكة إليه بالهدية فقال للمبعوث ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ هل أنا فى حاجة إلى المال! فقد أعطانى الله الحكمة والعلم والنبوة والملك والسلطان العظيم، إنكم أنتم الذين تفرحون بهديتكم ولست أنا، ثم قال للمبعوث ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ لا طاقة لهم بعددها وعدتها ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم ﴾ من سبأ أذلاء ﴿ صَاغِرُونَ ﴾ .

* * *

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾

ثم التفت سليمان فى مجلسه إلى جنوده وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ فقد علم سليمان (ﷺ) أن بلقيس فى الطريق إليه، فأراد أن يفاجئها بما وهبه الله من قدرات وإمكانات ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾ قبل أن تتحرك من مجلسك ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ لا يتلف ولا آخذ منه شيئًا ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ

﴿عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ تعددت أقوال المفسرين فى ذلك، ولكن ليس هناك من نص قرآنى ولا حديث صحيح أخذوا منه، فالأولى والأسلم ترك ذلك الغيب ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قبل أن تطرف بعينك ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ أى أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر العرش فى التو واللحظة، وعندما رأى سليمان (عليه السلام) العرش أمامه سجد لله شكراً واعترف بفضل الله عليه وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وقال ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ هل أحمد الله وأتقيه على ما وهبنى أم أقول ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي (٧٨)﴾ [القصص]؟ ثم أكمل سليمان الحكيم قائلاً: أما ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾.

***

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾

قال سليمان ﴿نَكِّرُوا﴾ غيروا فى شكل العرش لنرى هل ستكتشف أن هذا عرشها أم لا ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ بلقيس وقع بصرها على عرشها وخامرها الشك، فقد تركت عرشها فى سبأ فقالوا لها ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ قالت مندهشة ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ فبذكاء وحصافة جعلت ردها مقبولاً سواء كان ذلك عرشها أم لم يكن ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ قال أكثر المفسرين إن ذلك قول الملكة، ويعنى: قد علمنا صدق نبوتك، أو صدق ملكك، أو صدق الاثنين من قبل ما نرى العرش لديك، وأصبحنا بذلك مسلمين. وقال بعض المفسرين، ومنهم الزمخشرى والقرطبى إن ذلك قول سليمان وقومه، أو قول قومه. وقد صدها من قبل عن عبادة الله أنها كانت تعبد الشمس لأنها نشأت فى قوم كافرين ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي﴾ القصر، فلما وقع بصرها على أرضه حسبته ماءً ﴿وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ رفعت ملابسها قليلاً كى تعبر دون أن تبتل[1]، فقال لها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ أملس ناعم ﴿مِّن قَوَارِيرَ﴾ من زجاج شفاف، فأعلنت ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

***

(١) روت تفاسير كثيرة حكايات متعددة عن سبب جعلها تكشف عن ساقيها، ولم يأت الرواة بمصدر مُطَمئِن عن رواياتهم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) ﴾

أرسل الله إلى ثمود رجلاً منهم وهو صالح (ﷺ)، حاول أن يردهم إلى عبادة الله ردًا جميلاً، ولكنهم تشاجروا واختصموا وانقسموا إلى فريقين مؤمن وكافر ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ يُفهم من ذلك أنهم، كغيرهم من مكذبى الرسل، قالوا إئتنا بما تعدنا من العذاب إن كنت من الصادقين. وقال الزمخشرى: [كانوا يقولون لجهلهم: إن العقوبة التى يعدها صالح، إن وقعت على زعمه، تبنا حينئذ واستغفرنا، وإن لم تقع، فنحن على ما نحن عليه] ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ فلا ينزل بكم العذاب، فردوا عليه متطاولين ﴿ اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ تشاءمنا منك وممن تبعك ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ﴾ قدركم ومصيركم عند الله ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ ولكن يبدو أنكم تُستدرجون إلى بلاء كبير.

* * *

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ وكان فى مدينة صالح (ﷺ)، وهى الحجر، تسعة رؤساء مع كل واحد منهم رهط، أى جماعة، وكانوا جبارين مفسدين ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أى لنقتله ليلاً وأهله ﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ لطالب الثأر ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى لم نر هلاك أهله ونحن صادقون فى قولنا ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال الرازى: [وقد اختلفوا فى مكر الله تعالى على وجوه. أحدها: أن مكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون، شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة] ثم روى قصتين عن كيفية انقلاب مكرهم عليهم، ثم قال [وثالثها: أن الله ـ تعالى ـ أخبر صالحًا بمكرهم، فتحرز عنهم (فاحتاط لمكرهم)، فذاك مكر الله ـ تعالى ـ فى حقهم] ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) ﴾ هذا هو جزاء قوم صالح بما كفروا وكذبوا وقتلوا الناقة وأرادوا قتل صالح وأهله، فإذا مررت على قصورهم التى كانوا ينحتونها فى الجبال

وجدتها ﴿خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ وفى ذلك عبرة لقوم يعلمون، وأنجى الله صالحًا والمؤمنين المتقين.

❊ ❊ ❊

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾.

وها هو رسول الله لوط (ﷺ) يجاهد قومه الذين فسقوا وأدمنوا الشذوذ ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أتأتون الفاحشة وأنتم تعرفون أنها فاحشة، أو وأنتم ترون بعضكم البعض يفعلها ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾ وأى جهل أن تتركوا ما أحل الله لكم من زوجاتكم وترغبوا فى الرجال شهوة مُحرمة مقيتة عند الله.

❊ ❊ ❊

obeikandl.com